العقل العلمي

جان ديزانتي
ترجمة : محمد سبيلا

« العقل » و « العلم » : كلمتان مترابطتان بحيث ان المفهومين اللذين تشير اليهما الكلمتان مفهومان يحدد كل منهما الآخر ويتوقف عليه . وهذا الزوج ، الناتج عن عقد قران قديم ، زوج لا ينفصم ، الى درجة أن مجتمعاتنا التي يقال عنها بأنها مجتمعات متقدمة ترى فيه ميزتها الأصلية وعلامتها المميزة والمنبع المتجدد دوماً (كما تعتقد هذه المجتمعات) لسلطتها على الأشياء وعلى الناس . كل مجتمع ينشىء الأوجه الخاصة لتاريخه الأسطوري . فهو يجد في هذه الأوجه طمأنينته الخاصة والراحة المتولّدة عن التبرير الذاتي . فما يعتقده المجتمع عن نفسه يأخذ صورة ووزن واقع طبيعي ، ومعطى لا مرد له ، معطى ثقيلاً لا مجال لوضعه موضع سؤال . هكذا هو الأمر بالنسبة لنا ، نحن الذين انتظم تاريخنا في هذه الزاوية القارية المدعوة بأوروبا . وأن تكون قد ولدت في هذا المكان عينه واغتنت اشكال من المعرفة ندعوها العلوم ، فهذا ما قادنا إلى ان ننقل الى الانسان نفسه ، اي إلى الانسان النوعي ، إمكانية إنتاج هذه العلوم كما لو أن النوع ، الذي سمّى نفسه بالانسان العارف ، قد وجد هناك إمكانية تطوير طبيعته وفاز بالشكل الشمولي لوجوده : اي العقل .

ان مهمتي في هذا المقال هي اتخاذ وجهة نظر نقدية تجاه هذا اليقين الجميل والمتداول . والنقد يمكن أن يفهم من خلال ثلاثة معان .

أولاً : مساءلة الزوج علم ـ عقل حول تشكله التاريخي ، وارجاعه إلى أصله المفترض . وهو أصل يتعين علينا الاحجام عن نقد مدلوله لأنه ليس من الممكن تحديد سوى أصل واحد له .

ثانياً : قياس مدى ترابط مدلولي العلم والعقل . ربما كان ما ندعوه بـ « العقل » أقدم بكثير ، وأكثر رسوخاً مما ندعوه بـ « العلم » . وربما بدا اليوم أيضاً ان هناك مبالغة في هذا العقل المتجذّر ، وذلك بالقياس الى الطرائق التي تتطلبها العلوم . ربما تضمّن هذا العقل « فائضاً » .

ثالثاً : محاولة التعرف على هذا الفائض ومساءلته حول جذوره وحظوظ استمراره . وربما قيّض له ان يتخذ موقف الصمت ، أو أن يبعد بواسطة النجاحات التي تحققها انشطتنا التقنية ، التي هي اليوم انشطة مكتملة (او مليئة بالعلم كما يقال ؛ انظر هذا الرمز المزدوج : الناظم الآلي (L'ordinateur) وشبكة الأقمار الاصطناعية) . هل تبقّى له بعض الحظ ، أي هل تبقى له ميدان يمكن أن يبدع فيه خطابات . وبإيجاز ، هل تحول هذا الذي كان يدعى قديماً من طرف الاغريق بـ «اللوغوس» تحولاً نهائياً وإلى الأبد وضاع في عقلانية العلوم ؟ أو هل يتعين عليه أن يستمر في الحياة بلا دلالة ولا فائدة ، كموضوع للذكرى او للترديد الحنون ؟ هلا يكون من الملائم أن نبعثه من قبره في هذا العالم التكنولوجي . ألا يكون من الأجدى الحفاظ عليه وتطويره ؟ ألا يتعين إيقاظه الآن ووضعه في قلب المعارف ذاتها واعطاؤه الكلمة ضمن وبصدد عقلانية العلوم ؟

إن تناول كل هذه المسائل أمر غير ممكن هنا ، لكن ليبق القارىء بنظره مركزاً على هذه المسائل حتى يظل على مسافة من الخطاب التالي وحتى يحتفظ تجاهه بنفس مستقل .

١ ـ هناك صعوبة أولى تمسّ من قريب سؤالنا النقدي الثاني . لقد تحدثنا عن الزوج عقل ـ علم . وتلك مبالغة في استعمال اللغة . إذ ليس هنالك اليوم شيء في العالم يمكن أن نسميه : العلم . والحقيقة أننا عندما نريد أن ندقّق في ما نقصد بكلمة علم فإننا نجد أنفسنا أمام عدد لا حصر له من الفروع والتخصصات المتمايزة ، ذات الموضوعات المتمايزة ، والمناهج الخاصة ، التي تتطلب

---

* جان توسان ديزانتي Jean-Toussaint Desanti . أستاذ في جامعة باريس الأولى . من مؤلفاته « المثل الرياضية » (منشورات لوسوي ١٩٦٨) و« الفلسفة الصامتة » (لوسوي ١٩٧٤) و« مدخل الى الظاهراتية » (غاليمار ١٩٧٦) و« الفلسفة والسلط » (كالمان ليفي ١٩٧٦ وهو مجموعة حوارات) .

كل واحدة منها تهيؤاً وإعداداً خاصاً، وعادات فكرية ملائمة وأشكالاً أصيلة من الابداع . وحتى في ما يخص العلوم التي تبدو تحت مظهر واحد وتحمل اسماً واحداً (الرياضيات مثلاً) فإن في أحشائها تنوعاً كبيراً وتتطلب أكبر قدر من التخصص حتى تستطيع تحقيق التقدم :فنفس الاستعدادات لا تنفع بالنسبة لرياضيّ يشتغل في الطوبولوجيا الجبرية وبالنسبة لرياضيّ يشتغل حول نظرية الأعداد ؛ فالممارسات الرياضية ليست هي هي بالضبط في كلا الميدانين .

وعلى الرغم من هذه الفروق ، فإننا لن نتردد مع ذلك في الحديث عن عقلانية رياضية ، أي عن عدد من القواعد التي يلجأ اليها الرياضيون والتي يتفقون على احترامها مهما يكن الميدان الذي يشتغلون فيه . فهم مثلاً سيغضبون إذا توصلنا لى إقناعهم بأن كل خطّاطات الاستدلال التي يستعملونها تؤدّي إلى نتيجة ضرورية يتضمنها المنطوق اللامعقول التالي : $1 = 0$. وقد نتوقع انهم سيتخلون آنئذٍ عن مناهجهم وسيحاولون إنشاء رياضيات أخرى يمكن فيها تجنب مثل هذا النوع من الكارثة . وظرف كهذا الذي ذكرنا كان قد حدث فعلاً في بداية هذا القرن بصدد النسق الذي انشأه غوتلوب فريجه (Gottlob Frege) . بدا هذا النسق مقبولاً من حيث أن قوانين الحساب كانت مشتقة فقط من المنطق : منطق منشأ بوضوح لهذا الغرض من طرف فريجه ، وقدم على انه منطق لا يمكن تكسيره . في حين أنه لم يكن كذلك . فقد أنشأ برتراند راسل (B . Russel) ، ضمن النسق الذي وضعه فريجه ، قضية مقبولة داخل هذا النسق ومع ذلك فهي قضية مناقضة . وهذا ما دفع إلى القيام بالعديد من التعديلات بغية إنقاذ التناسق الداخلي للرياضيات . والخلاصة أن الرياضيات تنفر من التناقض الداخلي لدرجة انها لا تتردد في رفض قضية ما إذا أدت هذه القضية إلى نتائج متناقضة ومناقضة ، وذلك في اي ميدان من ميادين الرياضيات . سنندفع إذن الى القول (ولعلنا لن نخطىء) بأن « السعي الى تجنب التناقض مطلب عقلي داخلي في الرياضيات » . وقد يحدث ، من ناحية أخرى (وفي أي ميدان تشتغل فيه الرياضيات) ، أن تمارس الرياضيات استدلالاً كالتالي : أريد البرهنة على القضية ق . لنفترض نقيض ق . إذا استطعت استخراج تناقض من عكس القضية ، فإني أعتبر نفسي على يقين من أني قد برهنت على ق (وهو برهان الخلف كما يسمى ، برهان قدم البرهان ذاته) . إن الاستراتيجيا تقوم هنا على مبدأ أن نفس القضية لا يمكن أن تكون في نفس الوقت صحيحة وخاطئة ، وعلى أنه إذا كان نقيض القضية خاطئاً ، فإن هذه القضية صحيحة . ليس هناك حالة وسط ، وهذا هو ما يجعل هذا المبدأ يسمى بمبدأ « الثالث المرفوع » . سننجذب إذن الى القول : « إن احترام « الثالث المرفوع » مطلب عقلي داخلي في الرياضيات » . لنذهب إلى ابعد من ذلك . إننا نعرف أنه توجد منذ اكثر من نصف قرن مدرسة من الرياضيين والمناطقة ترفض « الثالث المرفوع » . ندعو هؤلاء بـ« الحدسيين » . ومع ذلك فهم لا يرفضون أبداً البرهنة ، بل العكس . فمتطلباتهم في هذا الصدد أكثر فظاعة من متطلبات الرياضيين المدعوّين بالكلاسيكيين . ففي نظر هؤلاء ، لا يمكن ان نقول عن قضية ما إنها قضية صحيحة إلا إذا كان باستطاعتنا أن ننشىء فعلاً برهنة عليها . سنقول إذن . إن مطلب اعداد وانشاء البرهان مطلب عقلي داخلي في الرياضيات الحدسية ، وهذا مهما يكن الميدان الرياضي المقصود .

وهكذا فعلى الرغم من التنوع الهائل في الميادين ، وحتى في المدارس ، فإننا نعتبر أن لدينا الحق في القول بوجود عقلانية رياضية : مطلب ألاّ نقبل على الأقل سوى الأنساق المتناسقة من القضايا وعلى الأكثر سوى أنساق القضايا التي تتطلب البرهنة عليها إعداداً وإنشاء . وعلى كل حال فإنه يبدو اننا أمام نشوء منظومة من القواعد التي ينظم استعمالها طرائق قبول وإنشاء المنطوقات . منظومة لا أحد ينكر علينا إمكان تسميتها بالعقل الرياضي . ومعنى كل ذلك ان للرياضيين هذه الصفة المشتركة : وهي انهم يحترمون قواعد منطق معين (كلاسيكي أو حدسي حسب الأحوال) . ويتبين ان هذا الشرط شرط أدنى وفقير .

ماذا سيحدث الآن إذا ما تطرقنا إلى ميادين علمية أخرى ؟ هل سنستطيع استخراج نوع من العقلانية المشتركة التي تلائمها كلها ؟ يبدو لي أن الأمر مشكوك فيه ؛ اللهم إلا إذا سلكنا مساراً *اختزاليا* ، اي إذا اخترنا علماً نعتبره عقلانياً بصورة بارزة وقسنا بالنسبة إليه درجة عقلانية العلوم الأخرى . هكذا كان الأمر في الماضي (انظر ديكارت والهندسة) . وهكذا هو الأمر الآن بالنسبة لبعض العلماء الذين يضعون قواعد العلم الذي يمارسونه على أنها القواعد الكونية للعقلانية . ومع كامل الاسف فإننا إذا ما تفحّصنا الاشياء عن كثب ، فإننا لا نعثر على العلم الذي يمكن أن يكون مرشحاً اليوم لممارسة هذه الوظيفة المعيارية

الكونية ، ولحيازة الجائزة الأولى للعقلانية . ليس هناك علم ، مهما يكن دقيقاً ، يكفي ليقدم للعلوم الأخرى المناهج التي تلائمها ، وليقدم لها معايير الحقيقة (رغم ان هذه العلوم يمكن ان تساعد على إنشائه أحياناً) . هذا هو الأمر ، مثلاً ، بالنسبة للعلاقة بين الرياضيات والفيزياء . فنحن نعرف اليوم أن الفيزياء لا يمكن ان تستغني عن الرياضيات . بل إن بعض فروع الفيزياء يمكن تقديمها على هيأة نظريات رياضية ، وفي صيغة علم البديهيات (انظر مثلاً العرض الأكسيوماتي للميكانيكا الكوانتية من طرف فون نيومان J. Von Neumann) . لكن هناك فارقاً أساسياً بين نظرية رياضية ونظرية فيزيائية . فالنظرية الفيزيائية تتعلق بظواهر لا يمكن ان تبرزها سوى الملاحظة والتجريب (مثلاً ظاهرة الانتشار ، انتشار الحرارة ، واصطدام الجزيئات ، الخ) . ولذلك فان التماسك الداخلي (احترام قواعد المنطق) ليس شرطاً كافياً لحقيقة منطوقات الفيزياء . وليس حتى من الأكيد أن ذلك شرط ضروري ، على الأقل عند مستوى معين من مرحلة الاكتشاف . ليس هناك سبب يجعل الطبيعة تخضع لقواعد منطقنا : إنها أكثر ثراء وأكثر تعقداً من ذلك . ويمكن أن نقول بأن الفيزياء لا يمكن أبداً أن تتقدم إذا لم تبق سوى على الوقائع التجريبية المتلائمة مع النظريات المتداولة . ولن تتقدم أبداً كذلك إذا ما اقتصرت محاولاتها ، كما هو الأمر في الرياضيات ، على استخلاص نتائج البديهيات بواسطة استعمال قواعد الاستنباط . وهكذا فرغم الاستعمال الضروري الذي يستعمل به الفيزيائون الرياضيات لحد تقديم منظومات قضاياهم ، بقدر الامكان ، على شكل نظام من البديهيات ، فإن الدقة التي تتطلبها قضية في الفيزياء تختلف من حيث الطبيعة عن القضية التي تلائم نظرية رياضية . والمعيار الأساسي لتميز حقيقة منطوق فيزيائي هو مطابقته للواقع كما يكشف ذلك التجريب والقياس . ومثل هذه المطابقة هي الشيء المقصود في منطوق القوانين التي تمكن من التنبؤ بما سيحدث فيما بعد لمجموعة شروط أولية معطاة (مثلاً اصطدام كرتين من كرات البلياردو نعرف موقعهما وسرعتهما وكتلتهما في اللحظة ت) . فإذا كان الفيزيائيون يقتصرون عامة على رصد الآثار القابلة للحساب ، فإن ذلك لا يعني أبداً ان عقلانية الفيزياء هي من نفس نوع عقلانية الرياضيات . وحتى في حالة اقتصارنا على علاقة الرياضيات بالفيزياء ، فإنه سيكون من باب الضلال أن نعتبر مثال العقلانية الذي تطمح اليه الرياضيات مثالاً نموذجياً ومعيارياً .

والحال أنه اذا لم تكن الرياضيات هي العلم المرشح بجد لنيل « الجائزة الأولى للعقلانية » ، فإن ذلك لا يعني ان الفيزياء هي المؤهلة لذلك . وهكذا يمكننا أن نردد نفس الدليل ، ولو أن الأمر سيكون طويلا ومنفّراً : ان عقلانية الفيزياء ليست معيار عقلانية البيولوجيا ، التي ليست بدورها معيار عقلانية التاريخ مثلاً .

ولنتأنَّ قليلاً قبل ان نتطرق لهذه النقطة حول مثال التاريخ والفيزياء . إن المؤرخ الذي يود نقل أشكال العلية (التي هي نفسها غير أكيدة تماماً) المستخدمة في الفيزياء إلى ميدانه لن يشعر سوى بأكبر الخيبات . يجب التخلي عن الفائدة الأساسية للعلية : اي أنه في ظل شروط معينة وحدود معينة يمكننا استخدام العلية من التنبؤ . لنفترض أن لدينا حالة قابلة للملاحظة (قابلة للقياس) حالة منظومة في اللحظة ت صفر ، فإن من الممكن التنبؤ بحالتها في اللحظة ت ١ = ت ٠ + ت٤ ، بواسطة تصحيحات وتقريبات . من الممكن ، في الفيزياء الكلاسيكية ، عزل المنظومة المقصودة . مثلاً ، إذا كنت ألعب البلياردو في قاعة المقهى (القاعة ثابتة وكذا محيطها المباشر ، ولنفترض عدم وجود زلزال مثلاً) ، فإن ما يحدث في الشارع (اصطدام سيارتين مثلاً) لا يؤثر على كرات البلياردو . والأشياء اكثر تعقداً وغير يقينية في الفيزياء الكوانتية حيث يجب أن نأخذ بعين الاعتبار العلاقات التي اكتشفها هيزنبرغ (Heisenberg) سنة ١٩٢٦ (والتي تدعوها « علاقة عدم اليقين » وهي تسمية غريبة) : فمقادير الدافع والموقع غير قابلين للاستبدال ، وهو ما يولد استحالة تحديد أحدهما بالضبط بالنسبة للآخر كما هو الأمر في حالة كرات البلياردو . ومن ناحية أخرى ، فإن مبدأ قابلية انفصال المنظومات المادية ليس مبدأ محترماً دوماً . ويبقى ان فيزيائيّي الذرة يعرفون كيف « يتوقعون » ، ضمن بعض الحدود المفروضة بواسطة علاقات هيزنبرغ ، وهذا على الرغم من أن كلمة تنبؤ (أو توقع) بالنسبة لهم لها معنى أكثر عسراً وأكثر إحراجاً مما هو في الفيزياء الكلاسيكية .

والحال أنه ليس هناك شرط من بين هذه الشروط المجحفة ، التي تمكّن في الفيزياء من صياغة قوانين قادرة على إيجاد تنبؤات ، ليس هناك شرط يمكن أن يصلح للاستخدام في ميدان التاريخ . ان القوانين التي يمكن صياغتها في هذا المجال هي قوانين ميلية ولا تتعلق سوى بميادين جزئية تم عزلها بنوع من التجريد ؛ أمثلة : علم

الاحصاء السكاني ، المنظومات الاقتصادية . لكن المصير التاريخي ، المأخوذ ضمن شبكة قصوى من العلاقات التي تشكله ، يمكن حقاً وصفه وفهمه وتفسيره جزئياً . ومع ذلك ، فإنه سيكون من باب الحمق أن نطرح على مؤرخ ما السؤال التالي : بالنظر الى العلاقة القائمة بين سلّم المؤشرات التي تشكل حالة منظومة اجتماعية في ١٩٨٠ ، ما هو إمكان التنبؤ بحالتها في سنة ١٩٨٥ بمقاربة معقولة . إن مثل هذا المشكل لا يمكن صياغته لان منطلقه (العلاقة بين سلالم المؤشرات كلها) فارغ من المعنى ، وهذا حتى في الحالة التي تكون فيها المنظومة الاجتماعية مختزلة ومحلية مثل مدينة أو حي .

والخلاصة أننا إذا انطلقنا من الزوج (الذي يبدو لنا مشروعاً) عقل ـ علم ، وإذا اعطينا لكلمة علم مضمونها الفعلي ، فإنه ليس هناك علم يمكن ان يكون كافياً (اللهم إلا إذا مارسنا عملية اختزالية) في تحديد وتعريف شيء مثل « العقل العلمي » في شموليته .

٢ ـ تلك هي الوضعية الحرجة التي نجد انفسنا فيها تجاه المشكل المطروح علينا : وهو وصف العقل العلمي . ومع ذلك يتعين علينا ان نفلت من هذا الإحراج . للخروج من مثل هذه الوضعية بإمكاننا تبني استراتيجيتين تمثلان امامنا للوهلة الأولى . إحداهما تقوم على التحويم حول المجالات العلمية المتباينة وعلى محاولة القيام بنوع من التجريد : أي انشاء بنية سابقة على ممارسة الأنشطة العلمية نفسها ، بنية يمكن ان تجد في هذه الأنشطة التحقق العيني لها، عبر عمليات تصويب وإغناء. يمكن أن يظهر أن هذه الاستراتيجيا تفتح الطريق الملكي أمام فلسفة عقلانية للعلوم. وبالفعل، فقد كانت تلك هي الطريق التي سلكها العديد من كبار فلاسفة الماضي ، على الرغم من الفروق القائمة بينهم . فالعقل الديكارتي ، والذهن الكنطي ، والعقل الهيجلي كانت هي تلك البنيات، المقدمة على أنها متلاحمة عضوياً مع الفكر ، او على كل حال فهي حاضرة باستمرار في كل عملية معرفة ، وبالتالي فهي حاضرة ، بأشكال مختلفة، في كل علم يمكن إنتاجه في يوم من الأيام . وهيجل وحده من بين هؤلاء الكبار هو الذي أدخلها كدودة في قلب الفاكهة بتمييزه بين الذهن الذي ينشىء تحديدات متجمدة ، والعقل الذي يعرض التطور الذاتي للمفهوم ، إلى حركة تتجه إلى ان تكتسب باستمرار طابع الشمول . فهو قد سجل عدم الكفاية الملازمة لعلوم الذهن ، بالقياس الى المتطلبات الملحة لتطور المفهوم ، الذي ، هو وحده ، العنصر الذي يشكل ، بمعنى دقيق وأساسي ، « العلم » . لنتذكر هذه اللحظة الهيجلية حيث تتجلى الحرية الكاملة لفعل التفكير ، في وعبر المفهوم . فلنؤشر بعلامة بيضاء ، ولنحلّه ، موقتاً على الأقل، على ما أسميناه منذ لحظة انطلاقنا « فائضاً » .

أما الاستراتيجيا الثانية فتقوم على مراعاة التنوع الأساسي لمجالات العقلنة ، كما تقوم بالتالي على رفض انتاج البنية الشمولية التي تضم كل هذه المجالات تحت اسم العقل . في هذه الحالة نأخذ بعين الجد المطلب الواحد الذي يخترقها جميعاً والذي يمكن التعبير عنه كالتالي : ضرورة ايجاد مجموعات من المدلولات الصحيحة من داخل كل مجال يمكن أن يكون قابلاً للملاحظة . إذا لم يكن بإمكاننا أن نعرّف المدلول الصحيح ، فإن بامكاننا على الاقل وصفه على الشكل التالي (ب ، ع) وهو زوج تدل فيه ب على القضية والحرف ع على البرهان عليها . ومهما كانت انماط البرهان متنوعة (برهنة ، اختبار ، مقاومة اختبارات التكذيب . . إلخ) ، فإن إمكانية القيام بها تظل شرطاً داخلياً لما ندعوه بالصفة العلمية ومعياراً للقبول ، وذلك بالقياس الى العدد اللامحدود من الجمل الممكنة في اللغة ، بمقابل تلك التي ينسب اليها مستعملو اللغةالمعنية قيمةً عقلية بكل ما في الكلمة من معنى . يكون من المهم ، من هذه الزاوية ، أن نميز معنى ضعيفاً لكلمة عقلنة عن معناها القوي . إذا تلفظت بالجملة : « كل القطط فردية العدد » ، فإني ساعتبر أحمق ، اي خارج دائرة القواعد العادية للتفكير . وإذا ما صحت قائلاً : « كل القطط عصافير » فسأعتبر إنساناً غريب الأطوار ، اي يستخدم اللغة من أجل أغراض خاصة ، بإنتاج قضايا خاطئة لكنها ليست خالية من المعنى . وعلى العكس من ذلك ، إذا صحت قائلاً « كل القطط ثدييات » فسينظر اليّ كإنسان جدي ومهم تعلم التاريخ الطبيعي ويحترم قضاياه . نميز إذن بين ما ليس حقيقياً لكنه غير ذي معنى ، وما ليس حقيقياً لكنه ذو معنى ، وبين ما هو حقيقي وذو معنى . وربما كان من الملائم أن نبحث فيما ليس حقيقياً لكنه ذو معنى عن مسقط رأس ما ندعوه بالعقلي ؛ بل ربما اكتشفنا فيه استعمالاً لحقيقةٍ أقدم من تلك التي هي مستخدمة في العلوم .

ان تفضيل استخدام الاستراتيجيا الثانية هي مسألة موقف فلسفي . وحسب ما اذا كنا ميالين الى مطلب التوحيد

الشمولي أو الى القيمة الخاصة للفروق ، يمكننا ان نختار الأولى او الثانية . لكن يجب أن ننتبه الى أن الاستراتيجيا الثانية لا تحل مسألة الوحدة . لذلك ، بدل ان تعالجها من فوق فإنها تحاول استكشاف أرضيتها السفلى التي تولدت منها العلوم والعقل ،او بعبارة أحسن ، الأشكال المختلفة للعقلانية التي انتجها الناس عبر تاريخهم والتي لا يمكن أن نتصور أن تلك التي نستمتع بها اليوم هي الأخيرة والممكنة وحدها . كما أن من اللازم أيضاً أن نتذكر أن الفلاسفة الكبار ـ باستثناء هيجل ـ في العصور الحديثة قد عثروا على طريق التوحيد العقلي بمنحهم امتيازاً أساسياً لإحدى «العلوم الكبرى » في عصرهم (الهندسة عند ديكارت ، الحساب اللامتناهي الصغر والمنطق عند ليبنتز ، والرياضيات والفيزياء النيوتونيان عند كنط) . ويبدو أن التقليد جرى على البحث عن نقطة ثابتة ، عن مركز رؤية يمكن انطلاقاً منه اعادة صياغة ، وموقعة ، وتأسيس صرح المعرفة الممكن بالنسبة لكائن مفكّر ، وذلك بالاشتغال على معايير علم أساسي ، وقد أضفي عليها طابع مثالي . ومهما كانت هذه الفلسفات ذات قيمة في ايامها ومهما ظلت حية اليوم فاننا لا نستطيع إعادة عبور نفس المسار بكل بساطة . إننا لا نعثر اليوم في مجال المعارف على نقطة ثابتة ، يمكن اعتبارها جذراً . لا أحد من هذه المجالات يقدم نفسه كبؤرة مشروعة للقيام بمهمة النموذج الشمولي . لهذا السبب يتجه اختياري الى الاستراتيجيا الثانية من الاستراتيجيات المقترحة : البحث عن طريق الوحدة من الأسفل بالحفر في ما تحت السطح .

وما تحت السطح يفهم بمعنيين . أولاً الافق الثقافي التاريخي اي المكون من الطبقات الثقافية المتناضد بعضها فوق البعض . هكذا نجد وراء كوبرنيك مثلاً ، أرسطو وبطليموس ، وهما حاضران معاً في بحوثه . ففيهما بالدرجة الاولى ، وبالنسبة اليهما ، عثر كوبرنيك على مجال المشاكل التي قادته الى تخيل فرضية حركة الأرض ، وبالنسبة اليهما وفق في استخلاص النتائج المتعلقة بحركة الكواكب المكونة للمنظومة الشمسية . ونفس الأمر بالنسبة لغاليليه : فقد وجد قبله وتحت تصرفه تركيبة ثقافية معقدة ومتأزمة جزئياً ، تضم ارسطو وكوبرنيك (وبالتالي بطليموس) ، وأفلاطون ، وأرخميدس ، وأقليدس (وذلك دون أن نشير الى أسلافه المباشرين) . برجوع غاليليه الى هذا المجال ، وبتعديله بصورة جدالية ، تعلم ان يصوغ المشاكل المطروحة في اتجاه ضرورة إنشاء نظرية للحركة ونظرية كوبرنيكية لتشكل السماوات. بعودته الى هذا المجال الثقافي استطاع تهيئة الأساليب والمصطلحات الخاصة التي ستمكنه من نشر مذهبه : اي التي ستمكن معاصريه بدورهم من القيام بإجراءات المعنى المتضمنة فيه . مثلاً : الاسلوب البرهاني الإقليدي في اليوم الثالث من أحاديث وبراهين تتعلق بعلمين جديدين التي تشكل مدونته حول الحركة المتسارعة بانتظام وبدون انتظام . مثال ثانٍ : الاسلوب البطليمي في مدونة حول المنظومتين الرئيسيتين للعالم حيث لا يتردد في الموازاة البارعة بين دقة العالم الهندسي والبلاغة المغترة للمبشر الموقن مما يفعل . قد يُرد عليّ بديكارت الذي حاول ـ باعترافه ـ أن يمسح كل المعرفة المتشكلة قبله وألا يهتدي إلا بالنور الطبيعي وحده . هذا أمر حقيقي . لكن ، أليس من الملائم أن نأخذ هذه الآراء بنوع من الابتسام . ان ديكارت لم يتجاوب فقط مع ما هو تقليدي ، بل كان عليه أن يستعمل المصطلحات التقليدية ، وأن يعيد استعمال بعض مفاهيم التقليد (اعادة الاستعمال هنا تعني التفكير تفكيراً جديداً داخل ميدان معرفي آخر ، مثلاً : علة ـ جوهر ـ نمط ـ لا نهائي ـ واقع صوري ـ واقع موضوعي) . وحتى « اصلاحه » للرياضيات يرتبط بشبكة معرفية منحدرة من الماضي لكنها مع ذلك ما تزال حية ، اي غنية بالمشاكل (أقليدس ـ أرخميدس ـ أبولونيوس ـ فييت (Viete) ـ حتى نكتفي بهؤلاء) . والخلاصة انه قام ـ باعترافه ـ بصهر « جبر المحدثين وتحليل القدماء » معاً والتفكير فيهما معاً . بقيت اللغة التي لم يستطع أن يشك فيها ، ولم يستطع الاستغناء عنها في الاستعمال : فهي الأرضية المشتركة بينه وبين الآخرين والتي تمر عبرها بالضرورة المناداة بالنور الطبيعي ويقظته لدى الآخرين، وهو الشرط الأدنى لكل فكر يبحث عن طرق التعبير التواصلي وطرق التعرف الشمولي .

وهذا يوصلنا الى المعنى الثاني لما تحت السطح . هذا المعنى يقدمه الينا استعمال اللغة كأداة للتواصل خاصة بمجموعة بشرية معينة . هذا الاستعمال يقدم لمستعملي اللغة المعنية معلومات من ثلاثة أنواع . معلومات تتعلق بالاشياء ، ونقصد بالاشياء هنا كائنات غير حية (أحجار ، قطع خشب الخ) وكائنات حية (كلاب ، خيل . . . الخ) وأشياء مصنوعة (المحراث ، القوس ، الفأس . . . الخ) . أما المعلومات الأخرى فتتعلق بخصائص ملائمة للأشياء : صلابة الحصاة ، طراوة او يبوسة قطعة الخشب. . . الخ . أما المعلومات الأخرى فتخص المعارف العملية ، وأشكال التصرف والسلوك

(أمثلة : قطع الخشب ، الطبخ ، لبس الثياب ، أكل .. الخ) . وهي تهم في نفس الوقت أسماء الأشخاص الذين ينجزون هذه الأنشطة (مثلاً : خزفي ، صياد ، فلاح ... الخ) . وبإيجاز فان استعمال اللغة يعمل خلال عملية التبادل بمثابة عملية تمييز تمارس في نفس الوقت تجاه المجموعة البشرية وتجاه المحيط . وهي عملية تغربل هذا المحيط وتصنف عناصره ، مبوبة إياها في أنساق من الموضوعات ومن الخصائص ومن الأفعال . تنتظم هذه الانساق ذاتها في كلية ، وتحدد وتحصر داخلها الأشكال المختلفة لاستقرار المجموعة البشرية ضمن محيطها . وفقط بواسطة عملية إضفاء الطابع الكلي هذه ، تتعرف الجماعة على ذاتها في محيطها كما لو كانت في عالم يترابط فيه ، باستمرار ، الثالوث أشياء ـ خصائص ـ أفعال ضمن سيرورة لا نهاية لها . لذلك فإننا لن نتردد في أن نتعرف في ذلك على شكل مجذر من العقلنة ، منتجة في وخلال استعمال اللغة . هكذا تنتظم ، وتتمايز وتستقر المقولات الدلالية التي يوفر استعمالها القدرة على التحكم في « العالم » . وتنتظم المعطيات المتعلقة بالصفات المكانية للأشياء (القريب ، البعيد ، الأعلى والأدنى) ، وكذا تحمل المسؤولية الاجتماعية للخصائص الزمنية لهذا العالم (زمن الميلاد ، زمن الموت ، زمن زرع الحبوب ، زمن جمع المحاصيل) ؛ وعبر هذا التنظيم الزمني يتم تعيين الوتائر والدورات ، والتعرف على دورات الفصول المقننة في اليومية الزمنية (le calendrier) ... وهكذا تتشكل مجموعة من الخطابات المتعلقة بالأشياء والمجتمع والعالم وبالعلاقات القائمة بينها ، مجموعة خطابات ناتجة عن التبادل وعن تنظيم المجالات المختلفة للممارسة الاجتماعية وهي خطابات تحكمها وتنظمها العلاقة بين الوحدات الدلالية التي تخلقها اللغة خلال استعمالاتها المختلفة .

هناك شيء آخر : ان نظاماً تواصلياً لسانياً ما لا يقيم استعماله إلا ضمن لغة محددة . ليس هناك لغة لا تتضمن معاييرها النحوية . وكل مجموعات الأصوات التي يمكن أن يتلفظ بها الجهاز الصوتي لا يتم قبولها بنفس الدرجة من طرف اللغة لكي تؤدي وظيفة الدلالة . بعض الأصوات فقط هي التي يمكنها ان تميز وحدات المعنى التي ندعوها بالكلمات . اما المجموعات الاعتباطية من الكلمات فلا تشكل بالضرورة جملاً يعترف مستعملو اللغة بأنها تقدم لهم معلومات . وما يتم الاحتفاظ به والنطق به هو فقط مجموعات الكلمات الملائمة لبنية اللغة ، هذه البنية المتشكلة سلفاً ، والتي تكون كل ذات متكلمة قد تمثلت وتشربت قواعدها خلال السنوات الأولى من الحياة . هكذا تتم معاناة العقلنة الملازمة لنسق اللغة كمجموعة من المعايير الطبيعية يضطر للتكيف معها كل فرد من أفراد الجماعة وذلك حتى يكون بالامكان توزيع القدرة المعرفية الملازمة للوحدات الدالة ، ومن خلالها انتظام واستمرار العالم المشترك . وهكذا تنتظم بنية ضمنية وعمياء حول القدرة المعرفية البارزة للكلمات . على هذه الصورة تبدو العقلنة المتجذرة التي تفتح أمام الجماعة البشرية إمكانية السيادة على العالم المحيط . انها بالأساس معان طبيعية تنظمها بنية نظمية (Syntaxe) متجذرة . وذاك أيضاً هو المعنى الثاني الذي يلائم ما دعوناه بما تحت السطح .

٣ ـ لنستعد ما قلناه . كان علينا أن نتحدث عن العقل في العلوم ، فوجدنا انفسنا أمام عدد غير مترابط من مجالات العقلنة الخصوصية . ومع ذلك كان من المطروح الكشف فيها عن شيء يعمل في قلب هذه المجالات ، شيء يكون لدينا الحق في أن نسميه العقل . لقد كان علينا ان نتخلى عن محاولة تحديد منظومة من المعايير الصالحة في كل مجال . كما تخلينا أيضاً عن محاولة البحث من فوق عن مبدأ أو مجموعة مبادىء (مقولات أو لنسمها ما نشاء) تميز ما يقال عنه أنه فكر عقلي . هل نعرف الآن أين نبحث ؟ يبدو لنا ذلك ممكناً وذلك بقدر ما نمسك بصراحة بنقطة ترابط شكلي ما تحت السطح الذي تعرفنا عليه إمساكاً جيداً . الشكل الأول هو أفق تراتب الدلالات الثقافية التي أضفي عليها طابع تقليدي . والثاني هو أفق المعاني القابلة للتحقق تبعاً لمتطلبات وإمكانيات التسمية الخاصة بلغة طبيعية معينة .

ان العلاقة المتحركة بين هذين الافقين هي الميدان الذي يتشكل فيه ، بالنسبة لمجتمع من المجتمعات ، المجال المفتوح والمعروض تاريخياً لعقلانيته الراسخة . وبالنسبة لنا اليوم ، هل يتعين علينا الإحجام ، وهل يتعين علينا أن نقول بأن هذين الأفقين تائهان في ليل الزمن وقد أبيدا الى الأبد ، بالقياس الى الأشكال الكثيفة والمتمايزة من العقلانيات العلمية ؟ أبداً . إن العقلانية الطبيعية التي تقطن اللغة المشتركة والتي تتعلق بالعالم ، ما تزال قائمة وحاضرة بجانب المعارف ، وهي تمارس ، بالنسبة لهذه المعارف ، نوعاً من الطلب وتطرح تساؤلاً . يلعب هذا المطلب دور الوحدة من حيث أنه يُحرج المعارف المتشكلة في لغتها الخاصة بمساءلتها عمَّ تتحدث . « عمَّ تتحدثين

بالضبط؟ هل يمكنك أن توافقي على أن تقوليه لي بحيث يمكنني أن أربطه بمتطلبات عقلي المشترك وان أتعلم كيف أتكيف معه ؟ » تلك هي المسألة التي تخترق كل المعارف ، بدرجات متفاوتة من حيث الإعداد . « ما مصدر هذا الذي تعتبرينه معرفة ؟ هل يمكنك أن تكشفي لي عن مصدره وعن أسرار تكونه ؟ هل يمكنك أن تبرزي لي دوافعه وتبرري لي غاياته بحيث يمكنني عند الحاجة أن أتبناه وأن أجد فيه مبتغاي حسب متطلبات عقلانيتي المتجذرة والقديمة ؟ » . تلك هي المسألة التي ما فتئت تنبثق اليوم من قلب متطلبات اللغة المشتركة .

إن طرح مثل هذه الاسئلة من بين أسئلة أخرى هي إحدى المهام الأساسية المطروحة اليوم على ما يمكن أن ندعوه « فلسفة » . إذا كان من الضروري أن نوجد في يوم من الأيام حركة عقلية أصيلة ، حركة تخترق المعارف وترجعها الى معناها ، وتعيد استخدامها ضمن العمل المشترك للفكر ، فمنها وحدها يجب أن ننتظر الوحدة التي ستأخذ اسم « التملك » . هذا ايضاً هو « الفائض » الذي يدفع العقل الى المساءلة والى البحث عن الجذر ، وذلك من حيث أن هذا الفائض يقطن العقل الطبيعي. والحال ان على العقل أن يبتدع ـ في هذه الحركة ـ لغته . ولهذا فقد أشرنا بعلامة بيضاء على ظهور هذا « الفائض » : السلبي والمفهوم ، « الفائض » الذي ترقد قدراته وإمكانياته دوماً في أعماق اللغات التي ننشأ ضمنها ، نقول ذلك دون أن نكون أبداً هيجليين .

الفكر العربي المعاصر

المحور القادم

خطاب الحريّة في نهاية القرن العشرين

يشترك في تحريره باحثون ومفكرون متخصّصون